رأيي في تحديد عصر الراغب الأصفهاني

للدكتور عمر عبد الرحمن الساريسي

تقديـــم

رجّحت ، في العدد المزدوج ٣ ، ٤ من مجلـة المجمع الموقر ، نسبة كتاب « درة التنزيل وغرة التأويل » للراغـب الاصفهاني ، وقد عـزاه بعض قدامى الباحثين والمعاصرين لغيره . واليوم احاول ، بحول اللـه ، أنْ اقدِّم رأيـاً في خطأ اكبر ، قـام في اذهان كثير من الباحثين ، حـول تحديد وفـاة الراغب الاصفهاني نفسه ، فأزعم ان وفاته قد كانت ، على الأرجح ، قبل عـام ٥٠٢ هـ ، الذي حدّده لهـا هؤلاء الباحثون ، بقرنٍ كاملٍ من الزمان ! وليس هذا الفرق في تحديد عصر احـد رجال التراث بيسير ، بل إنـه يزداد اهميةً إذا ادركنا انّ اغلب كُتّاب الطبقات والتراجم قد اداروا ظهورهم لهـذا الكاتب فلا يكادون يتعرضون لـه ، ومن لـم يتجاهله مـن الباحثين المحدثين ، وهـم قلة ، فقد عـدّه من اهل القرن الخامس الهجري . وكلمـا مضى الباحث في القـراءة في « محاضرات الأدبـاء » او في « معجم مفردات القـرآن » او في « الذريعة الى مكـارم الشريعة » او في غيرها من آثـاره المطبوعة والمخطوطة ، شعر بظلـم جائر وحيف يتعرض لهمـا هذا الكاتب ، فأغراه البون الشاسع ما بـين الكائن والذي ينبغي أن يكون بالمزيـد من الكشف والبحث في سبيـل الوصول الى الحقيقة او مـا يشبه الحقيقة مما يرضي الضمير ويوفـي مطالب البحث العلمي الوثيـق .

الإشكال الأول ـ تاريخ الوفـاة :

حينمـا وافق مجلس كليـة الآداب ، بجامعة عين شمس ، علـى ان يدور بحثي (١) حول حياة أبـي القاسم ، الحسين بن مفضّل بن محمد ، المعروف بالراغب الأصفهاني واثره في اللغـة والأدب مع تحقيق إحـدى مخطوطاته ، مَضَيْـت اتسقط اخباره ، فذهبتُ الـى صاحب « كشـف الظنون » (٢) استهديه في التعرف الـى مصنفاته بصيصاً مـن نـور ، قد تسعف في الوصول إليـه كتب الاعلام والمؤلفين والمطبوعـات (٣) ، فعـدَّد من مصنفات الراغب مـا لا يزيد على اصابع اليـد الواحدة ، وسكتَ عن الاشارة لعصر المصنف في بعضها ، بينما ذكـر ، في بعض ، انـه قد توفي في راس المائـة الخامسة . اما ما تذكره اكثر كتب المحدثين عن وفـاة هذا الرجل فهو عـام ٥٠٢ هـ (٤) ، وبينهما فـرق زمني لا يستهان بـه ، انـه قد يكون قرناً براسه . وهذا هـو الإشكال الأول الذي يلتقيه الباحث في هـذا البحث .

---

(١) لنيل درجة الدكتوراة في الاداب من قسم اللغـة العربية ، وقد نوقش البحـث بتاريخ ١٩٧٧/١١/١٧ .

(٢) حاجي خليفة ، استانبول ١٩٤١ .

(٣) مثل الاعلام الزركلي ومعجم المؤلفين لعمـر رضا كحالة ومعجم سركيس .

(٤) راجـع الاعلام ٢ / ٢٧٩ بـ ١ ومعجم المؤلفين ٤ / ٥٩ ومعجـم المطبوعـات العربية لليوسف سركيس ٩٢٢ وتاريـخ الأدب العربي لكارل بروكلمـان ١ / ٢٦٩ (النسخة الألمانيـة) ودائرة المعارف الاسلامية ١ / ٤٠٧ ؛ ٤٧٣ .

الإشكال الآخر ــ نــدرة الترجمة :

استطلعتُ ياقــوت في « معجم الأدباء » (٥) فلــم انظفر منه بترجمة للراغب ، وبحثتُ في « طبقات الأدباء » (٦) فلــم أعثر على شيء ممــا أريد ، وكذلك كانت « طبقات الشــافعية » (٧) . قلّبتُ صفحات « تاريــخ بغداد » (٨) فبــدا وكأن صاحبنا لم يزرها ولم يعرفها ، ثــم نظرتُ فــي « الوفيات » (٩) وفي تتماتهــا (١٠) فأعياني النظر ، وفتشتُ في « يتيمــة الدهــــر » (١١) مسرعاً ، وفيما اتمّهــا مــن « دميــة قصر » (١٢) و « وشاحها » (١٣) ومــا تلاها من « خريدة قصر (١٤) فلم أعــد عنه منها جميعا بكلمة واحدة ! ونقّبتُ في « سير أعــلام النبلاء » (١٥) فلــم يتــع

---

(٥) مطبعــة دار المأمون باشراف احمد فريد رفاعي ، ولا أدري كيف يذكــر الموانساري (في روضات الجنات ٣ / ١٩٧) أن صاحب معجم الادبــاء قد ذكر الراغب .

(٦) نزهة الالبــاء في طبقات الادباء ، ابو البركات الانباري (٥٧٧) تحقيق د. ابراهيــم السامرائــي ١٩٥٩ .

(٧) للامــام السبكي ٧٧١ هـ .

(٨) للخطيب البغدادي ٤٦٣ مكتبــة الخانجي والمكتبة العربية ببغداد ١٩٣١ م .

(٩) وفيات الاعيان ــ ابــن خلكان ٦٨١ هـ .

(١٠) الوافــي بالوفيات ، صلاح الدين الصفدي ٧٦٤ ، فوات الوفيات ، ابن شاكــر الكتبي ٧٦٤ وعقود الجمان على وفيات الاعيان وهو مخطوط رأيتــه في مكتبة الفاتح بجامع السليمانية باستانبول رقــم ٤١٣٤ مسعة محمد بن عبد الله المرانشي .

(١١) ابــو منصور الثعالبي ٤٢٩ هـ وهــو سبب التفتيش السريع .

(١٢) الباخــرزي ٤٦٧ هـ .

(١٣) علي بن يزيــد البيهقي ٥٦٥ هـ .

(١٤) العمــاد الكاتب الاصبهاني ٥٩٧ هـ .

(١٥) شمس الدين بن عثمان الذهبــي ٧٤٨ هـ .

لصاحبنا ان يكون واحـداً منهم ، وسالتُ عـن آدابـه في « شذرات الذهب » (١٦) فوجدتُ أن صاحبها لم يعـدّه منها .

إشارتـان ونُقُـول :

ولكـن مصنفين فاضلين قد خالفا مَنْ قبلهما وعرضا لـه عرضـاً وجيزاً ، وكان لعرضهما ، على وجازته ، قيمة كبيرة لمـن تلاهما من كُتّاب التراجـم العامة والخاصة .

امـا اولهما فهو ظهير الدين البيهقي الذي عاش في القرن السادس (٤٩٩ ــ ٥٦٥) وترجـم « لحكماء الاسلام » (١٧) وجعل ابـا القاسم الراغب واحداً منهـم .

ولا يقلـل من قيمته ، في تقدمه ، عـدم تعرضه لتاريخ الوفـاة ، كما لا يقلل منها أنّ احداً ، بعده ، لـم ينقل عنها ، في حدود علمنا ، فربما كان ذلك السبب ، كما يذكر بعض الباحثين ، هو الموقـف الذي كانت تقفـه العامة والخاصة في بعض مراحل التاريخ الاسلامي مـن رجـال الحكمـة والفلسفة (١٨) .

واما الآخر فهو جلال الدين السيوطي (٩١١) (١٩) الذي نقـل عنه المصنفون من ذوي الحرص والتثبت مثـل حاجي خليفة في كشـف الظنون . وعن هذا نقـل سائر المصنفين ونقل اصحاب التاريـخ الخاص

---

(١٦) ابـن العماد الحنبلي ١٠٨٩ هـ .

(١٧) تاريـخ حكماء الاسلام ، تحقيق ونشر الاستاذ محمد كرد علي ، دمشق ١٩٤٦ ، ص ١١٢ .

(١٨) الشيخ الاستاذ مصطفى عبد الرازق ، تمهيـد لتاريخ الفلسفة الاسلامية ٨٦ .

(١٩) بغيـة الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، مكتبة الخانجي ، ط ١ ، ٣٩٦ .

واعني بهم مؤرخي الشيعة من امثال محمد باقر الخوانساري (٢٠) ومحسن الأمين العاملي (٢١) وعباس القمي (٢٢) وآغا بزرك الطهراني (٢٣) .

وكانت نقول هؤلاء عن صاحب كشف الظنون ذات قيمة في دراسة الراغب تعلو على ما اخذوه من المراجع التي ذكروها ممن سبقهم في التأريخ لطبقات الشيعة (٢٤) . وقد حاولت ان اطلع على هذه الطبقات فلم استطع .

وكان اثر السيوطي في ابراز فضل الراغب ، فوق ذلك ، فيما نقله عن بدر الدين الزركشي (٢٥) من حديث فخر الدين الرازي عن الراغب وانه من ائمة السنة « وقرنه بالغزالي » . وقد اطرى الزركشي نفسه ، ايضا ، احد مصنفات الراغب (٢٦) ، كما اطراه السيوطي في بعض مصنفاته (٢٧) .

---

(٢٠) روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات ، طبع وتحقيق ايران ٣ / ١٩٧ .

(٢١) أعيان الشيعة ، مطبعة الانقان ١٩٤٨ .

(٢٢) سفينة البحار ومدينة الحكم والاثار ١٣٥٩ ، والكنى والالقاب ، مطبعة العرفان ، صيدا ، ١٣٥٨ هـ .

(٢٣) الذريعة الى تصانيف الشيعة ، النجف الاشرف ، ٢٠ / ١٢٨ ، ١٠ / ٢٨ ، ٤ / ٣٥١ ، ٨ / ٩٥ .

(٢٤) مثل كتاب اخبار البشر ، ورياض العلماء وحياض الفضلاء للميرزا عبد الله ، واسرار الامامة للشيخ حسن بن علي الطبرسي ، ذكرها صاحب روضات الجنات وصاحب أعيان الشيعة غير انني لم استطع الاطلاع عليها في مكتبات بغداد (اثناء زيارتي لها في ١٩٧٥/١١/٦ ، وهي غير متوفرة في دار الكتب المصرية) .

(٢٥) البرهان في علوم القرآن ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ، مكتبة الحلبي ، ١ / ٢٩١ .

(٢٦) المرجع السابق حيث ذكر كتاب الراغب « الذريعة الى مكارم الشريعة » .

(٢٧) الاتقان في علوم القرآن ١ / ٧٢ حيث عدّ الراغب من المفسرين غير المحدثين واشار اليه في عدة مواضع .

وقد كانت اشارات هؤلاء جميعا الى الراغب شديدة الشح في الاخبار عن الأحوال الشخصية له من ولادة ونشأة وروابط اجتماعية وثقافية وعملية ، فاقتصرت على الإيماء الى موقع مذهبه بين السنة والاعتزال والتشيع (٢٨) وعلى مبلغ اخذه من العلوم العقلية أو النقلية (٢٩) ، أو على مدى قربه بالغزالي (٣٠) أو اعجاب ابي حامد الغزالي ببعض كتبه (٣١) . أما وفاته فقد اضطربت فيها اقوالهم اضطرابا شديدا .

حتى اذا ما وصلنا الى العصر الحديث راينا انّ نُقُول المحدثين عن السابقين لا تتعدى هذه الحدود ، وهو امر مألوف ، وقد قيل « وكيف اعتدال الفرع والأسّ مائل » . ولا يغيّر من هذه الحقيقة تعدّد الناقلين ، فقد ترجم للراغب ترجمة سريعة كل من بروكلمان (٣٢) والموسوعة العربية الموسعة (٣٣) ومعجم المطبوعات العربية (٣٤) والقاموس الاسلامي (٣٥) وجورجي زيدان (٣٦) وفهرس المكتبة الخديوية التيمورية (٣٧) . أما دائرة المعارف الاسلامية (٣٨) فقد نقلت عن بروكلمان نقلاً مباشراً .

---

(٢٨) السيوطي ، بغية الوعاة ، ٣٩٦ ، والخوانساري ، روضات الجنات ٣ / ١٩٧ .

(٢٩) البيهقي ، تاريخ حكماء الاسلام ١١٢ .

(٣٠) السيوطي ، بغية الوعاة ، ٣٩٦ .

(٣١) حاجي خليفة ، كشف الظنون ، ١ / ٥٢٠ .

(٣٢) المجلد الثالث المبسط ، ص ٥٠٥ ، النسخة الالمانية .

(٣٣) دار القلم ومؤسسة فرانكلين ، القاهرة ١٩٦٥ ، ص ٨٥٤ .

(٣٤) يوسف سركيس ، مطبعة سركيس بمصر ١٩٢٨ ، ص ٩٢١ .

(٣٥) احمد عطية الله ، مكتبة النهضة العربية ١٩٦٦ ، ٢ / ٤٧٢ .

(٣٦) تاريخ آداب اللغة العربية ، دار الهلال ٣ / ٤٤ .

(٣٧) ٤ / ٢٥٤ ، ٢١٦ ، ٢١٧ .

(٣٨) المجلد التاسع ١ / ٤٠٧ ، ٤٧٣ .

ولـم يكن حظ الراغب في كل هذه المراجع اكثر من سطور ، لـم تزد عنها ، إلاّ في فهرس المستشرق الألمانـي بروكلمان .

على ان باحثاً فـذاً قد هدته بصيرتُه الى ادراك فضل الراغب والتنبيه عليه لأول مرة في العصر الحديث ، وهـو الاستاذ محمد كرد علي مؤسس المجمـع العلمي العربي بدمشق واحـد امراء البيان في الأدب العربي الحديث ، فقد افرد له مقالة ضافية في مجلة مجمع دمشق (٣٩) نشرها فيما بعد في كتابه « كنوز الأجداد » (٤٠) ، ونشرها في احـد اعداد مجلـة المقتبس (٤١) التي يشرف على تحريرها . ولا يقلل من فضله هذا انـه حقق كتاب « حكمـاء الاسلام » للبيهقي الذي ذكرنا انـه اول من اطرى الراغب من الأقدمين ، فقد حققت مصنفات السيوطي والزركشي ولـم يـزد محققوها عـن الهوامش المختصرة .

امـا مقالة الكاتب الشاعر محمد عبد الغني حسن حول كتـاب « محاضرات الأدباء » المعروف للراغب فلم تعـد ان تكون تلبية لنـداء استاذه كرد علي في الشام . وقد حاول ، في هذه المقالـة (٤٢) ، ان يتحدث عن هذا الكتاب ثـم عقد مقارنة بينه وبين كتاب المستطرف للابشيهي . اما ما عـدا ذلك فلا اعرف ان احدا قد تعرض لصاحب المحاضرات باكثر من اشارة متعجلة (٤٣) ، في حدود ما نعلـم .

---

(٣٩) العـدد ٢٢ ، شبـاط فبراير ١٩٤٧ .

(٤٠) مطبعـة الترقي ، دمشق ، ١٩٥٠ ، ص ٢٦٩ .

(٤١) ٢ / ٢٩٨ ، ٢٩٩ .

(٤٢) في كتابـه دراسات في الادب والتاريخ .

(٤٣) مثـل اشارة الشيخ مصطفى عبد الرازق في كتابه تمهيد لدراسة الفلسفة الاسلامية ، ص ٨٦ .

واشارة الدكتور عمـر فروخ في كتابه « تاريخ الادب العربي ، دار العلـم للملايين ،

البحـــث :

لـــم يكن بـــد ، اذن ، من البحث عن اخبار الرجل عـــن نفسه ، بعد ان لم تسعف احاديث الآخرين عنـــه . فلعلنا نقع منه على ما يـــدل على احواله الخاصة ، مـــن موطن ومنشأ ومعاش وتثقف ، ولعلنا نظفر منه على مـــا ينبيء بالعصر والمعاصرة .

لهـــذا فقد صح العزم على السفر ، ثانية (٤٤) ، الـــى استانبول ، للتقير في المخطوطات هناك ، عـــن اخباره فيما خلّف مـــن رسائـــل ومصنفات . وقـــد تمت الزيارة في النصف الثاني من شهر حزيران عـــام ١٩٧٥م ، فكان اطلاع على مـــا نسب اليه من مخطوطات في المكتبـــة السليمانية كبرى مكتبـــات استانبول وفي غيرها كمكتبة كوبريللي ومكتبـــة احمـــد الثالث (طوب قبوسراي) ومكتبة راغب باشا ومكتبة بايزيـــد .

الـــم يتحدث عن نفسه ؟

وكـــان هذا السؤال الذي يـــرد اولا في الخاطر .

انـــه لم يتحدث بضمير المتكلم الا في مواطن قليلة الى حـــد ماموس ، ملتفظر فيها وفيما وراءهـــا :

بـــيروت ١٩٧٢ (٣ / ٢١٤) .

واشارة الدكتورة وديعة طـــه نجم في كتابها « الجاحـــظ والحاضرة العباسية » ، بغـــداد ١٩٦٥ ، ص ٤٢ .

واشارة الشيخ محمد حسين آل كاشفي الغطاء في كتابه « اصل الشيعة واصولها » وحينما اورد الدكتور زكي مبارك نصا من « محاضرات الادبـــاء » للراغب ، في كتابه « النثر الفني في القـــرن الرابع الهجـــري » لـــم يقل لنا شيئـــا محددا عـــن عصـــر الراغـــب .

(٤٤) فقـــد كانت الزيارة الاولى لاستانبول بتاريخ ١٩٧٤/٩/٢٦ للحصول على النسخة الاخرى من مخطوطة « مجمـــع البلاغة » الراغب ، والتي عني الباحث بتحقيقهـــا وتقديمها مع هـــذا البحث لنيل درجة الدكتوراة .

في مخطوطة « مجمع البلاغة » نقرأ النصوص التالية :

« ورأيت من الادباء من يحمل ذلك على الاباحة (في شرح قولهم : اذا لم تستح فاصنع ما شئت) » (٤٥) .

« وانشدت بعض الناس ... فقال لي ... (٤٦) .

« وللأدباء اشعار كثيرة في الهر اخترت صدرا منها في عيون الاشعار » (٤٧) .

وفي تفسيره المخطوط (٤٨) يقول « وقد رأينا كتبا كثيرة صنفت في الطعن على الاسلام قد نقلت وتدُوولت » .

وفي كتاب « الذريعة الى مكارم الشريعة » يقول : « وكثير في زماننا من تحلى بعلم الكلام وترشّح فيه للجدال والخصام » (٤٩) .

هذا مبلغ ما يسمح به في حديثه عن نفسه : رأيت وانشدت واخترت ورأينا وزماننا ، وكل هذه العبارات لا تنبيء عن شيء خاص في تكوين صورة له ، في اية مرحلة من مراحل عمره ، ولا يخرج عن هذا الشح في الحديث عن النفس ما يتوله في العبارة الاخيرة عن علم الكلام وما يستتبعه من جدال وخصام .

ثم نبحث عن صدى من مثل هذه اللمحات العزيزة عن بعض ملامح نفسه واخلاقه فلا نجد الا القليل النادر ايضا .

---

(٤٥) مخطوطة مجمع البلاغة ، ورقة ١٠٨ .

(٤٦) المصدر السابق ، ورقة ١٧١ .

(٤٧) المصدر السابق .

(٤٨) مخطوط رقم ١٧١ ، مكتبة ايا صوفيا بالسليمانية في استانبول .

(٤٩) مجمع البلاغة الورقة ١٢٧ .

من ذلك نص في « مجمع البلاغة » (٥٠) : قال :

وانشدت بعض الناس ، وقد لامني لمنعي اياه شيئا سألنيه :

الامُ واعطي والبخيل مجاور له مثل مالي لا يُلام ولا يُعطي

فقال : نعم تلام ثم تلام ، وانشد :

فما كل بعذور ببخل ولا كل على بخل يلام »

لعل هذا الموقف الذي اجابه به من كنّى عنه « ببعض الناس » يوحي انّ الراغب كان ذا سمعة طيبة وشهرة واسعة لا تسمح له ان يتهم بالبخل كأيّ فرد آخر غير مشهور من الناس .

وقد نلمح اثر هذه السمعة الاجتماعية والمنزلة العلمية المتميزة في تقديمه لبعض مصنفاته :

« سألت ايها الاخ الفاضل ... ان اعمل رسالة ابيّن فيها انواع الاعتقادات التي يحكم بها على الانسان بالايمان والكفر ... وقد استخرت الله تعالى في ذلك وعملت ما اقترحته » (٥١) .

وفي آخر « كنا تذاكرنا ، اطال الله بقاء الشيخ الفاضل وادام تأييده ، في لفظ الواحد والأحد وتحقيقهما ، فسأل ان اثبت ذلك كتابة ففعلت ايجاباً له » (٥٢) .

---

(٥٠) المرجعة ١٧١ .

(٥١) مقدمة رسالة في الاعتقاد ـ مخطوط رقم ٣٨٢ ، بمكتبة سعيد علي باشا بالسليمانية باستانبول .

(٥٢) مقدمة رسالة في ذكر الواحد والاحد ـ مخطوط رقم ٣٦٥٤ / ٢ ، بمكتبة اسعد افندي ، بالسليمانية باستانبول .

مشاركة في الندوات والمجالس العلميـــة :

فمـــن هذين النصين يتبيّن انّ الراغب كـــان يشارك الاخرين في مجالس العلم والادب ، ،وهي مـــا قلنا انها بمعنى محاضرات الادباء ومجالسهم ، بل انـــه قد كان يسأل ليقدم رايـــه في امور دقيقة في العقائد كالايمان والكفـــر وعناصر الايمان وتحقيق لفظتي الواحد والاحـــد ، ولا يسأل عنها الا الراسخون في العلم . بل إنّ الراغب يورد لنـــا نصّاً ثالثاً ، في هذا الصدد ، نلمح منه انـــه كان من الذين يقولون بالراي الفصل اذا مـــا اختلطت الآراء واختلفت ، يقـــول « بلغني ما جرى بحضرة الشيخ ، اطال اللـــه بقاءه ، من ذكر مخالطة الناس ومجانبتهم أن الحاضرين عنده اختلفوا : بعض يمدح المجانبـــة وبعض يمدح المخالطة ، ثـــم اختلفـــوا في الصداقة ، فاحببت ان اجعل ذلك كتابـــا اذكر فيه نكت ما قالـــه العلماء والحكماء واجعله هدية اليـــه » (٥٢) .

وهـــذا دليل على تفاعل الراغب مع المجتمـــع وقضاياه والانصات لمـــا يدور في مجالس كبراء المناصب السياسية والاجتماعية والخوض فيما يخوض الناس فيـــه من امور اجتماعية كالصداقة والاصدقاء ، وهـــو يلتقي مع ما قاله احـــد الناسخين على غلاف احـــدى مخطوطاته (٥٤) من انـــه « كان حسن الخَلْق والخُلُق جـــدا ، كان يستعبد الناس حســـن محاورته لهـــم » . غير انـــه لم يذكر احداً من العلماء على انـــه تتلمـــذ عليه او اخـــذ عنه ، وهذا من اعجب الأمور ، فتعمى علينـــا اســـمـــاء اساتذته وتلاميذه ، فيما وصلت اليه ايدينـــا ، حتى الآن ، من آثـــاره .

---

(٥٢) مقدمة رســـالـــة في مخالطة الناس ـــ مخطوط رقـــم ٢٦٥٤ / ٢ ، بمكتبـــة اســـعد افندي ، بالسليمانية باستانبـــول .

(٥٤) مخطوط الذريعة الى مكـــارم الشريعة ، رقـــم ٧٦٨ ، بمكتبة ابراهيم باشـــا ، بالسليمانيـــــة .

سمة دينية :

أما السمة الدينية التي نتخيل انها تصبغ افعاله وعلاقاته الاجتماعية فقد نلمحها فيما سنرى من دعوته المتكررة لتسخير الدنيا في سبيل الاخرة ، ومن كثير من الأدعية ينثرها في تصانيفه في البدايات والخواتيم وفي الأثناء . من ذلك الدعاء الذي قد اجد فيه ممثلا لسائر ادعيته :

« اللهم زهدنا في الدنيا ووسّعها علينا ولا تزوها عنها فترغبنا فيها ... اللهم لا تفتني بالافتقار اليك ولا تفقرني بالاستغناء عنك ، لسانك خصب الرحل وصلاح الأهل والمعاونة على الدنيا بقناعة » (٥٥) .

ازمة في حياته :

وقد عثر الباحث على خبر خاص بأزمة عاناها الراغب ، وعلى الرغم من انها لا تحل لنا شيئا من التساؤلات التي نحن بحاجة الى اجابتها ، حتى الآن ، فاننا نعرضها .

انه يقول في احدى مخطوطاته (٥٦) « فلم تزل تلك الدواعي (دواعي النظر في الآيات المتشابهة في القرآن) تزيد وتنمي منذ الصبا وثوبه الشيب الى ان عوضت منه ريطة المشيب » وهذه عبارات قد تفيد ، بعد قليل ، في التعرف على عمره ، طولا وقصراً ، ثم يقول « فاتفقت خلوة سطوت على وخشتها بالقرآن ، ولولا انسه لم يكن لي بها يدان ... وكانت هذه الخلوة خلوة عين لا خلوة قلب واضطرار لا عن اختيار بل لقهر وغلب في حالة توزع الراي فيها مذاهب واقتسم الهمّ لها مطالب » (٥٦) .

---

(٥٥) مخطوطة مجمع البلاغة ، ورقة ١٤٨ .

(٥٦) « درة التأويل في متشابه التنزيل » ، مخطوط للراغب ، رقم ٨٦٠ ، مكتبة اسعد افندي (السليمانية) استانبول .

ايــة ازمــة ؟

إنّ هــذه الأزمة ظاهرة . كما يبدو من قوله . . « لــم يكن لي بها يــدان » ومن قولــه . . « توزع الراي فيها مذاهب » وهــو صاحــب الراي السديد الذي يسعف به المتخاصمين ، كما مرّ بنا في مقدمة مخطوطته « في ادب مخالطة الناس » . فمــا عسى هذه الأزمة ان تكون ؟ ومــا طبيعتها ؟ اهي فكرية تتصل بالتردد بين علمــاء الكلام وبين اراء اهــل السنــة والجماعة ، كلاّ فــإنّ الراغب يتخذ في هذه الأمــور خطــا واضحاً لا تردّد فيــه ، وهو الوقــوف الى جانب اهــل السنــة والجماعــة (٥٧) ، ولــو انــه يرى صلاح الأمــة في الجمع بين الشرع والعقل (٥٨) . ام أن ازمته اجتماعية ذات اتصال بمصدر كسب الرزق وانقطاعه بسبب موت وزيــر او خلافه ؟ ام انهــا ذات طابع سياسي تتصل بقهر وزيــر او وال او خلافهما بنــاء على مخالفة في الاراء الفكرية وفي مواقف الفــرق الاسلامية ؟ إنّ في كلمتــه ما يلمح الى هذا ويلمح الى ذاك . فهي « خلوة عين لا خلوة قلب » فلئن اغمضت عينه فــإنّ قلبــه لم ينقفل ، إنّــه ظلّ على ما هو عليه ، عامراً بما كان عامراً بــه من فكر ويقين . ثــم إنّ فيها قهراً ، لا محالة ، اليس يقــول « لا عن اختيار بل لقهر وغلب » يبــدو ان الرجل قد غلب على امره فخلا الى نفسه ولــم يعصمه من الشطط في هــذه الخلوة إلاّ قراءة القــرآن ، وفيها توزع رايه مذاهب بــين القبول والرفض . بين الانصياع والثورة . ثــم ماذا بعد ؟ إننــا لا نستطيع ان نزيد شيئا ، فليس بين ايدينــا من اخباره مــا يساعدنا على الزيادة ، حتى الآن ، وان كنا لــم نزل نسعى في الظفــر بالمزيــد من اخباره .

---

(٥٧) مخطوط « رسالة في الاعتقاد » للراغب ، رقــم ٣٨٢ ، بالسليمانية ، (سعيد علي باشا) ، (استانبول) ، الورقة ٢ .

(٥٨) تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين ، طبع حلب ، ص ٦٣ .

سن الشيخوخة :

وفيما يتصل بطول ما عاش من عمر فان النصوص القليلة من اخباره ، في آثاره ، قد تدلنا على انّه قد بلغ مرحلة الشيب والشيخوخة .

إنّه يقول في احد هذه النصوص « فلم تزل تلك الدواعي — دواعي النظر في الآيات المتشابهة في القرآن — تزيد وتنمى منذ الصبا ونوبه القشيب الى ان عوضت منه ريطة المشيب » (٥٩) وريطة المشيب يعني بها ثوب السن المتقدم في الكبر حينما يتغطى الراس بالغطاء الأبيض.

وفي ختام كتاب « الذريعة » (٦٠) يقول « فسهّل يا رب المجاز وييسّر لي بالجواز ، فقد حان حصادي ولم يصلح فسادي » ، وواضح ما يريده من ان يحين الحصاد في العمر دليلا على التقدم في السن .

فسادا ما عرفنا ان كتاب الذريعة هذا لم يكن الأخير من كتبه في حياته أدركنا انه قد ادرك ، على الأرجح ، مرحلة الشيخوخة لا الشيب فحسب . ذلك انّه في مقدمة مفردات الفاظ القرآن (٦١) يقول « كنتُ قد ذكرتُ في الرسالة المنبّهة على فوائد القرآن ... واشرتُ في كتاب الذريعة الى مكارم الشريعة ... وقد استخرتُ الله في املاء كتاب مستوفى فيه مفردات الفاظ القرآن ... وأتبع هذا الكتاب ، ويعني المفردات ، بكتاب ينبيء عن تحقيق الألفاظ المترادفة على المعنى الواحد وما بينها من الفروق الغامضة ... » .

---

(٥٩) « درة التأويل في متشابه التنزيل » ، مخطوط للراغب ، رقم ٨٦٠ ، مكتبة اسعد افندي ، السليمانية ، استانبول .

(٦٠) طبعة مكتبة الكليات الازهرية ، ١٩٦١ ، القاهرة .

(٦١) طبعة المطبعة الميمنية بالقاهرة ، ١٣٢٤ هـ .

وفي مقدمة كتاب الذريعة (٦٠) يقول « كنت قد اشرتُ فيما املَيتُه من كتاب تحقيق البيان في تأويل القرآن الى الفرق بين احكام الشريعة ومكارمها ... وقد استخرتُ الله تعالى الآن وعملت في ذلك كتاباً يكون ذريعة الى مكارم الشريعة » .

ترتيب آثاره :

ومن هاتين المقدمتين يبدو انه قد صنف اولا « الرسالة المنبهة على فوائد القرآن ثم تحقيق البيان في تأويل القرآن ، ثم كتاب الذريعة الى مكارم الشريعة ثم كتاب المفردات في الفاظ القرآن ثم درة التأويل في متشابه التنزيل .

وهو يذكر بعض هذه المصنفات في مقدماته للبعض الآخر ، كما راينا ، من النصوص السابقة ، بيد انه لا يذكر واحدة من هذه المصنفات الفكرية الدينية والأخلاقية في اي من مصنفيه الأدبيين — محاضرات الأدباء ومجمع البلاغة ، كما انه لا يذكرها في هذين المصنفين . فهل كانت المصنفات الأدبية في اوائل عمره الأدبي وكانت مصنفاته الأخرى في الفكر والدين والأخلاق والسلوك بعد ان تقدمت به السن ؟ انه افتراض قد يوصل اليه الاجتهاد والاستنتاج ، في غياب النصوص الصريحة الدالة .

كِسَف من المرآة المحطمة :

لقد كان الرجل ، اذن ، قليل التحدث عن نفسه وعن خصوصياته ، فلم يذكر لنا اسم استاذ اخذ عنه او فقيه او اخباري او لغوي جلس اليه ، ولقد ترددت في آثاره عبارة « املَيت » لكنه لم يضف عليها ليفيد باسم المملى عليه ، ولو مرة واحدة ، كما انه لم يحدثنا عن مُتَرباه وعن طفولته وعن نشأته ، لم يذكر لمسقط بأيّ من

اصفهان التي يحمل اسمها ولا من بغداد التي من المحتّم أن يكون قد التقى بها أو عاش فيها . فغاية ما استطعنا أن نجمعه من كشف هذه المرآة المحدبة ، الى جانب هذا التواضع في الحديث عن النفس الى درجة النذرة ، انه كان يشارك في ندوات القوم ومجالسهم العلمية براي فيه التضلع في اللغة والتمكّن من الثقافة الدينية ، بل انّ الدين كان لديه مسلكاً وعقيدة وعبادة ، وانّه قد التزم به ازمة ، لم ندر ما ابعادها وما دواعيها ، حملته على الانعزال عن الناس برهة من الزمان ، لم ندر ما طولها ، وانه قد اشتعل راسه شيبا ، وهو يضيف بعض اعماله . لما اكثر من ذلك فلم نقف منه على اثر .

المزيد من البحث :

ومع هذا كله فان الباحث لا يستسلم لليأس مثل الطبيب الذي لا يسأم الموت . فلا بد من تقليب ما اثر عنه من الغلاف الى الغلاف . لعلنا نظفر بما يقرّبنا من صورته او عصره .

فعلى الورقة الأولى من مخطوطة « الذريعة الى مكارم الشريعة » (٦٢) وجدت ترجمة للراغب نسخها مجهول عن ترجمة البيهقي التي عرضنا لها في الاشارتين الى تاريخ وفاته ، فهو بذكرها في نهاية الاشارة بقوله « من تذكرة الحكماء » ولعله يريد من « تاريخ حكماء الاسلام » ثم يضيف : « وكان حسن الخَلْق والخُلُق جداً ، وكان يستعبد الناس حسن محاورته بهم » وهو حديث عام لا يحصل شيئاً محدداً ، ويختم اشارته بقوله « مات باصبهان وهو ابن ست وستين سنة ، ودفن بها ، رحمه الله » . وهي عبارة نافعة لو ارتبطت بذكر البداية الزمنية او النهاية التي تنبىء بتاريخ الوفاة ، او تقربنا من عصر صاحبنا تقريبا ما .

---

(٦٢) رقم ٧٦٨ ، بمكتبة ابراهيم باشا بالسليمانية ، استانبول .

وعلى الصفحة الأولى من المخطوطة نفسها عثرت على فقرة كتبت بخط التعليق (الفارسي) الدقيق ، غير انها لم تشف الى ما نعرف شيئا ذا بال ، فقد عددت ثلاثة من آثاره وذكرت ان العلماء قد تلقوها بالقبول ، ثم اخذت تردد مزايا مدينة اصفهان التي هو واحد من مشاهيرها .

وعلى الورقة الاولى من مخطوطة اخرى للراغب هي « حل متشابهات القرآن » (٦٢) نجد حديثا لا يربطنا به الا انه مثبت على مخطوطة منسوبة حقاً لصاحبنا الراغب . فقد ذكر هنا القارىء المتسرع اسماً لم نعرفه من اسماء الراغب هو « ابو محمد بن الحسين الاصفهاني ». ولم تعرض كتب التراجم لاصفهاني يحمل هذا الاسم . وفي هذا الحديث انه تصدر للوعظ والتدريس والتاليف . وله مصنفات جليلة (لم يذكرها) ومناظرات عجيبة . وفيه ايضا ان له رحلة للهند وغيره (كذا) « ولما رجع الى نيسابور مات في الطريق سنة ست واربعمائة ، فنقل لنيسابور ودفن بها » .

ان هذه الآثار لا تستمد القوة من نفسها بل من قربها من اخبار اخرى موثقة قد تتهيأ ، فليست ، وحدها ، مطمئنة ولا مرونة ، وليست معلنة عن اصحابها ، ولا تحمل المعلومات الكافية عن الراغب . انها ، اذن ، قد تفيد في الترجيح على الرغم مما يكتنفها من الشك . ونحن نستمع بإرهاف لأشدّ الأصوات خفوتاً حينما تعزّ علينا الأصوات العالية الصريحة ، وقد قال الشاعر :

من جزّ كلبا فمحتاج الى وبر ولا قطّ الحبّ محتاج الى البعر

---

(٦٢) رقم ١٨٠ ، بمكتبة راغب باشا باستانبول .

ما بين السطور :

ونبحث ، من بعد آثاره ، فيما بين سطور آثاره ، نستنطقها ولا بد انها ناطقة ، فلعلها لا تكون صماً خوالد ما يبين كلامها « كأطلال ابيد » .

فمن هم الأعلام الذين ذكرهم الراغب في هذه الآثار ؟

ومن هم الأدباء الذين اجرى أشعارهم ومنثوراتهم في تضاعيفها ؟

ومن هم رجال السياسة الذين عرض لذكرهم في حياته ؟ هل ذكر بعضهم باحتشام وتهيب ؟ وذكر آخرين بغير تلك المشاعر ؟

ان آخر وفاة يذكرها الراغب في آثاره لا ترقى ، في حدود ما علمت من مطبوعاته ومخطوطاته (٦٤) ، الى اكثر من عام ٤٢١هـ ، وبصورة ادق كان هذا العام هو تاريخ وفاة اكثر الرجال تأخراً في حياته ، وهذا العام هو عام وفاة ابي علي الخازن احمد بن يعقوب بن مسكويه (٦٥) . مثل ان اكثر من ذكرهم من اعلام السياسة والادب هم من قضى في اخريات القرن الرابع . لقد ذكر ابا الفضل بن العميد وزير بني امية في مخطوطة مجمع البلاغة خمس مرات وفي محاضرات الأدباء مثل ذلك تقريباً ، وعدوا له فيهما اقوالا ، وذكر الصاحب بن عباد الوزير الثاني لبني بويه في المخطوطة المذكورة سبع عشرة مرة وفي محاضرات الادباء اكثر من ذلك ، واورد بعض اقواله واشعاره وضربها امثلة على موضوعات كان بطرقها . ومن المعروف ان الاول قد توفي عام ٣٦٠ هـ (٦٦)

---

(٦٤) لقد اطلعت ، حتى الآن على الآثار المطبوعة والمخطوطة التي ذكرها بروكلمان ما عدا مخطوطتي كتاب الاخلاق ، (برلين ٥٢٩٢) ، وادب الشطرنج ، (قازان IGL. XVII 4) ، فلنا عائد في البحث عنهما بمشيئة الله .

(٦٥) الاعلام ١ / ٢٠٤ ، هـ ٣ .

(٦٦) وفيات الاعيان ٥ / ١٠٩ ، وتجارب الامم ، ابن مسكويه ٣٠١ .

وامـــا الآخر فعام ٣٨٥ هـ (٦٧) .

ولقـــد ذكر معهما حكام بني بويه كعضد الدولـــة (٣٧٢ هـ) (٦٨) وعـــز الدولة (٣٦٧ هـ) (٦٩) . غير انّـــه لا يذكر ، ولو خبراً واحداً عن الذين ادال لهـــم من بني بويه فخلفوهم على الحكم واعني السلاجقة الأتراك الذين يبـــدأ تاريخ حكمهم عـــام ٤٤٧ هـ . فهل تراه يعيش الى عـــام ٥٠٢ هـ ، الذي ذكر انـــه توفي فيه ، نيفـــاً وخمسين سنة في ظل حكام لا يذكر عنهـــم شيئا ؟

ثـــم ما بال ابي القاسم الراغب يعجب بأبي الطيب المتنبي ، ايّمـــا اعجاب ، فيذكره حينـــاً باسمه احمد بن الحسين،وحينا بكنيته ابي الطيب ، وحيناً بلقبه المتنبي،ويستشهد بقـــدر كبير من شعره لكأنه لا يمثل ولـــو بكلمة واحدة من آثـــار ابي العلاء المعري وقد تعددت في شعر ونثـــر وموضوعات وفكـــر وادب ؟ الا يعني هذا شيئا لنـــا ؟ وقد توفي ابـــو الطيب عـــام ٣٥٤ (٧٠) وقضى ابو العلاء عـــام ٤٤٦ هـ ؟ (٧١) وهل يعقل ان موقف الراغب من ادب ابـــي العلاء وفكره قد منعه من ذلك ؟ انني لم اقف على شيء يؤيـــد ذلك فيما اطّلعتُ عليه من آثـــاره .

ثـــم انّ في آثاره ما يشهد بأنّه عاصر بعض مراحل الصراع الفكري بين علماء الكلام وسائر الفرق الاسلامية كالأشعرية والشيعـــة (٧٢) ،

---

(٦٧) ذيـــل تجارب الامم ، ابو شجاع ظهير الدين الروذرواري ، ص ٢٦١ ، احـــداث عـــام ، ٣٨٥ ، الاعلام للزركلي ٣ / ٣ ، ط ٢ .

(٦٨) ذيـــل تجارب الامم ، الروذرواري ، ص ٣٩ ، احداث عـــام ، ٣٧٢ .

(٦٩) المصـــدر السابق ، ص ٣٨١ ، احداث عـــام ، ٣٦٧

(٧٠) وفيـــات الاعيان ١ / ٣٦ .

(٧١) معجـــم الادبـــاء ١ / ١٨١ .

(٧٢) احمد امين ، ظهر الاسلام ، ط ٤ ، ٢ / ٥١ .

وقد استمرت هذه الخصومات في القرن الرابع وخمدت في القرن الخامس (٧٢) .

فما نحصّل من هذا كله شيئا ؟

نحسب اننا بازاء رجل كان يعيش في عصر الصاحب بن عباد المتوفى عام ٣٨٥ هـ .

ابو العباس الضبي ، خليفة الصاحب بن عباد :

الا نعرفنا آثاره ، بعد ذلك ، الى نفسه اكثر من ذلك ؟ لعلنا نظفر بشيء من ذلك اذا مضينا في البحث والتنقير في هذه الآثار .

إنّه حينما يورد بيت الشعر التالي في مخطوطة « مجمع البلاغة » (٧٤) التي عني الباحث بتحقيقها :

لا تحسبن دموعي البيض غير دمي وانما نفسي الحامي يصعّده

ينسبه في نسخة معهد احياء المخطوطات التابع لجامعة الدول العربية التي رمز لها بحرف (ع) « للأستاذ الرئيس احمد بن ابرهيم » ، بينما ينسبه في نسخة مكتبة جامع السلطان احمد الثالث باستانبول المرموز لها بحرف (س) للصاحب بن عباد .

وهنا نلتقط اسم « الاستاذ الرئيس احمد بن ابرهيم » لنبحث عنه فلعلّه يكون راس خيط يوصل الى يقين . إنّ الراغب لم يذكره في المخطوطة المذكورة مرة اخرى ، بل إنّه لم يَرِد في اعمال الراغب إلاّ في موقف آخر فقط ، هو في محاضرات الأدباء (٧٥) .

---

(٧٣) المصدر السابق والصفحة .

(٧٤) ص ٤٩٠ .

(٧٥) الجزء الرابع ، الصفحة ٦٠٩ ، دار مكتبة الحياة ـ بيروت .

ونبحث عن صاحب الاسم لنجد ان ياقوت يخبرنا انه « ابو العباس الملقب بالكافي الأوحد ، الوزير بعد الصاحب ابي القاسم ابن عباد ، لفخر الدولة ابي الحسن علي بن ركن الدولة بن بويه ، مات في صفر ٣٩٩ هـ » (٧٦) ونجد انّ « ذيل تجارب الامم » ، الذي اتمم التأريخ بعد كتاب ابن مسكويه المشهور (تجارب الأمم) يخبرنا انّه « لدى وفاة فخر الدولة وتولي ابنه مجد الدولة الحكم ، والوزيران يومئذ هما ابو العباس الضبي المتلقب بالكافي الأوحد وابو علي بن حمولة المتلقب بأوحد الكفاة » (٧٧) . وقد ذكره ايضا الصاحب في بعض رسائله ذكر من يرضى عنه ومن يعدّه لجلائل الأمور في مستقبل الايام (٧٨) ، كما ذكره صاحب « وفيات الاعيان » (٧٩) والثعالبي في « اليتيمة » (٨٠) والذهبي في تاريخ الاسلام (٨١) وعباس المكي في « نزهة الجليس » (٨٢) . اما المافروخي في كتابه « محاسن اصفهان » فانه يورد نصاً صريحا يربط ما بين الصاحب وخليفته الضبي هذا ثم يذكره باسمه ولقبه بشكل صريح ، يقول « وقّع الصاحب كافي الكفاة الى الاستاذ الرئيس ابي العباس الضبي توقيعاً بقضاء حاجته » (٨٣) .

---

(٧٦) معجم الادباء ، دار المشرق ، بيروت ٢/١٠٥ .

(٧٧) ظهير الدين الروذاواري ، ذيل تجارب الامم ، شركة التمدن الصناعية ، ١٩١٦ ، احداث السنوات ، ٣٦٩ ــ ٣٨٩ .

(٧٨) رسائل الصاحب ابن عباد ، تصحيح عبد الوهاب عزام ، وشوقي ضيف ، دار الفكر العربي ، ١٣٦٦ ، ص ٩٤ .

(٧٩) ٢ / ٩١ .

(٨٠) ١٠ / ١١٨ ــ ١٢٤ .

(٨١) احداث عام ، ٣٨٨ .

(٨٢) ٢ / ٢٨٥ ، وعدّه من الذين ترددوا على بلاط الصاحب في اصفهان والريّ وأرّجان .

(٨٣) محاسن اصفهان ، المافروخي ، طبع ايران ، ١٣٥٢ هـ ، ص ٦٨ .

وقد يقرب هذا الوزير من صاحبنا الراغب انّه ذكر انّه رفع اليه ثلاثة من كتبه ورسائله ، لم يذكره باسمه ولكن بلقبه « الاستاذ » :

ففي مقدمة كتاب تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين يقول الراغب:« وقد عملت ذلك للأستاذ الكريم ايّده الله » (٨٤) .

وفي احدى رسائله المخطوطة (٨٥) يقول:« ولما رايت الأستاذ حرسه الله ... » وفي اخرى يقول (٨٦):« قصدي في هذه الرسالة ان ابيّن للأستاذ ادام الله تأييده ... » وفي آخرها يقول:« .. وقى الله الأستاذ واطال بقاه » .

وهو في كتابين منشورين يكني عنه بـ « سيدنا » وهو مَنْ نرجح انّه هو ايضا ، ففي مقدمة كتاب المحاضرات (٨٧) يقول:« وبعد فإنّ سيدنا ، عمر الله بمكانه مرابع الكرم ... احبّ ان اختار له ... »

وفي مقدمة المخطوطة المحققة « مجمع البلاغة » يقول:« ... ولما رايتك حرس الله جمال الفضل بكسمائلا الى الألفاظ المونقة ... تتبعت نوادر الأشعار » (٨٨) .

---

(٨٤) طبعة حلب ، ص ٢ .

(٨٥) هي رسالة في ان « فضيلة الانسان بالعلوم » ، مخطوط ٣٦٥٤ / ١ ، مكتبة اسعد افندي ، بالسليمانية.

(٨٦) هي رسالة في « مراتب العلوم » ، مخطوطة ٣٦٥٤ / ٤ ، مكتبة اسعد افندي ، بالسليمانية .

(٨٧) دار مكتبة الحياة ببيروت .

(٨٨) المخطوطة ــ مجمع البلاغة ــ المقدمة .

ولقد عرف هذا اللقب لغير هذا الوزير ايضا ، فقد كان يلقب به ابو الفضل ابن العميد ، كبير وزراء بني بويه . غير ان الراغب لم ينسب هذا اللقب لابن العميد حينما يذكره ، وكثيراً ما ذكره ، في « محاضرات الادباء » وفي « مجمع البلاغة » ، بل انه قد نسبه لهذا الوزير ، احمد بن ابراهيم ، ابو العباس الضبي فقط ، كما رأينا .

كشف عصر الراغب :

من هنا يرجح الباحث ان ابا القاسم الراغب الاصفهاني قد عاصر اولا الصاحب بن عباد ، وزير بني بويه ، المتوفى عام ٣٨٥ (وكان قد عاصر قبله ابن العميد) ثم عاصر بعد الصاحب الوزير الذي جاء خليفة له وهو الوزير ابو العباس الضبي ، احمد بن ابراهيم ، المتوفى عام ٣٩٩ . كما يرجح الباحث ان الراغب كان يقدم بعض مصنفاته هدايا لهذا الوزير الذي عرف بالاستاذ الرئيس .

عودة لمناقشة تاريخ وفاة الراغب :

واذ قد وصل بنا البحث الى ان الراغب الاصفهاني قد كان يعايش الصاحب بن عباد وخليفته ابا العباس الضبي فقد اصبح من الضروري البحث عن الراي المرجّح في تاريخ وفاته الذي ذكرنا ، في بداية البحث ، ان المؤرخين ، على قلتهم،قد انتهوا فيه الى خلط كبير .

الفئة الاولى :

وقد كان هؤلاء المؤرخون متميزين في فئتين ، في هذا الراي .

اما الاولى فتجعل وفاة الراغب في بداية القرن السادس ٥٠٢ هـ او في النصف الثاني منه ٥٦٥ هـ . واما الثانية فتجعله في بداية القرن الخامس .

ولدى مناقشة أقوال الفئة الاولى نجد انها تمثل اقوال مؤرخي الشيعة واقوال بروكلمان ومن شايعه .

فلقد ذكر صاحب « الذريعة الى تصانيف الشيعة » اكثر من مرة (٨٩) ان الراغب قد توفي عام ٥٦٥ هـ ، ونقل ذلك عن كتاب « اخبار البشر » ، وهو من الكتب المتقدمة في طبقاتهم . ومن الغريب انه يناقض نفسه فيسوق ارقاماً اخرى ، فهو يذكر مرة ان وفاة الراغب كانت في ٥٠٢ هـ (٩٠) ومرة في ٣٢٢ (٩١) . وكفى بهذا التناقض دليلا على التهافت في هذه التواريخ . ومن المؤسف ان نقل عنه في ذكر وفاة الراغب (في ٥٦٥ هـ) بعض مؤرخي الشيعة مثل عباس القمي في « الكنى والالقاب » (٩٢) ، والخوانساري في « روضات الجنات » (٩٣) .

غير ان باحثاً منهم قد ناقش صحة هذا التاريخ ليثبت ان الوفاة قد تمت عام ٥٠٢ . قال : « وفي الروضات (ص ٢٥٦) عن تاريخ اخبار البشر انه توفي عام ٥٦٥ وهو غلط ، فانه قال بعد ذلك إنّ وفاته قبل وفاة جار الله الزمخشري ، مع ان الزمخشري توفي عام ٥٣٨ ، ويأتي عن كشف الظنون أن الغزالي كان يستصحب الذريعة (الى مكارم الشريعة) للمترجم (يعني للراغب) والغزالي توفي ٥٠٥ هـ » (٩٤) .

---

(٨٩) الجلد ١٠ ، ص ٢٨ ، والجلد ١ ، ص ٣٧٤ .

(٩٠) ٢٠ / ١٢٨ .

(٩١) ٨ / ٩٥ .

(٩٢) ٢ / ٢١٠ ، مطبعة العرفان ـ صيدا .

(٩٣) ٢ / ١٢٧ ، طهران .

(٩٤) محسن الامين العاملي ، اعيان الشيعة ٢٧ / ٢٢٠ ، مطبعة الانصاف .

ولـــو ان هذا الباحث واصل تساؤله عن مصادر تواريـــخ وفـــاة الراغب ، اذن لادرك ان المتوفى عـــام ٥٠٥ هـ قـــد يستحب ، وان لـــم يكن يستحيل ، ان يعنى بمصنف لمعاصر لـــه توفي قبله بثلاث سنـــوات فقط ، فكيف اذا كان هذا المعتني هو حجة الاسلام ابـــا حامد الغزالي ؟ !

ولكن من اين جاءنا رقم ٥٠٢ هـ هذا ؟ لم اجـــد مؤرخاً من الأقدمين ذكره او ذكر ما يوحي بـــه . واغلب الظن انـــه جاء من المستشرق الالماني كارل بروكلمان ، في تأريخه للأدب العربـــي (٩٥) . فجميع الذين قالـــوا بـــه في العصر الحديث (٩٦) ، ولا استثني مؤرخي الشيعة الذيـــن ذكروا قبل قليل ، فهـــم عيال عليه ، فقد نقلوا عنه نقـــلا مباشرا « امينا » . ومع ذلك فلم يشيروا الى مرجعهم ، الأفهرسة الخزانة التيمورية الخديوية ، فقد ذكرت « المتوفى ٥٠٣ ، كما حققـــه بعض المستشرقين » (٩٧) .

الفئـــة الثانيـــة :

هـــذه ، اذن ، هي اقوال الفئة الاولى في التأريخ لوفـــاة الراغب الاصفهاني ، وتكاد تتركز في عـــام ٥٠٢ ، وقليل منها الذي ذكر عـــام ٥٦٥ هـ .

امـــا الفئة الثانية ففي مقدمتها يذكر جلال الدين السيوطي (٩١١) الذي يفصل بينه وبين عصر الراغب قرابـــة خمسة قرون . فقد كـــان اول من ذكر ان الراغب « كان في أوائل المائـــة الخامسة » (٩٨) ، ولعله

---

(٩٥) المجلـــد الثالث ، المبسط ، ص ٥٠٥ .

(٩٦) مثل دائرة المعارف الاسلامية ، والقاموس الاسلامي ، ومعجـــم المطبوعـــات العربية ، وجورجي زيدان ، والموسوعة العربيـــة الموسعة ، وخير الدين الزركلي ، وعمـــر رضا كحالة .

(٩٧) ٢ / ١٠٨ .

(٩٨) بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، السابق ، ط ١ ، ١٣٢٦ ، ص ٢٦٦ .

يريد بذلك انه قد عاش الى ما بعد نهاية المائة الرابعة للهجرة . ولعله يفهم منه ، كذلك انه لم يعش من القرن الخامس اكثر من عقد منه او عقدين على الأكثر ، حيث يدركها وهو شيخ طاعن في السن (٩٨) .

ولنذكر هذه الصيغة التي هي اقرب الى روح التحري العلمي الدقيق « اوائل المائة الخامسة » ولم يجزم بتاريخ محدد . ولا ننسى ايضا ، ان السيوطي قد اشار الى ان فخر الدين الرازي قد اظهر اعجابه بالراغب ، واعجاب الآخرين بكتبه .

واقتصر السيوطي ، في ذكر عصر الراغب ، حاجي خليفة في « كشف الظنون » ، ومع انه سكت عن ذلك ، وهو يذكر بعض مصنفات الراغب (٩٩) ، فانه ذكر في بعض آخر انه « في رأس المائة الخامسة » (١٠٠) ونص على من نقل عنه في بعض ثالث « وسماه السيوطي في طبقات النحاة المفضل بن محمد وقال : وكان في اوائل المائة الخامسة » (١٠١) .

ان الراغب يدين ، فيما يبدو ، لجلال الدين السيوطي بقدر ليس بالقليل من الذكر والتأصيل . وقد مر بنا ان ظهير الدين البيهقي اول من ذكره ، لم يتعرض لذكر وفاته .

ولبعض الباحثين المحدثين شيء من مثل هذا الفضل في تحقيق تاريخ وفاة الراغب .

---

(٩٨) بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، الخانجي ، ط ١ ، ١٣٢٦ ، ص ٣٩٦ .

(٩٩) المجلد الثاني ، ص ٣٨٩ .

(١٠٠) ١ / ٢٠٦ ، ١ / ٣١٧ .

(١٠١) ٢ / ٤٨٨ .

يذكر الاستاذ محمد كرد علي ، في تحقيقه لكتاب « تاريخ حكماء الاسلام » (١٠٢) للبيهقي السالف الذكر ، يذكر في احد هوامشه ان الراغب قد توفي عام ٤٠٢ في اصح الروايات اي أوائل المائة الخامسة . وبقدر ما في العبارة من تحقيق قد لا يعدو الصواب كانت تنقصها الاشارة الى المرجع ، وان كان النص يشي بأنه مستقى من السيوطي .

ويذكر الاستاذ محمد ابو الفضل ابراهيم ، في تحقيقه لكتاب « البرهان في علوم القرآن » للامام بدر الدين الزركشي في بعض هوامشه « انه ، اي الراغب ، توفي عام ٣٩٦ هـ » (كذا) . ويضيف « وانظر بغية الوعاة ٣٨٦ » (١٠٢) ويريد برقم ٣٨٦ رقم الصفحة من الطبعة التي استقى منها « بغية الوعاة » . ولا ادري من اين استقى هذا المحقق الفاضل هذا التاريخ ٣٩٦ ؟ وصاحب « بغية الوعاة » الذي يحيلنا عليه هو القائل بأن الراغب قد عاش الى اوائل المائة الخامسة ؟ !! .

ومع ذلك فان قرب هذا التاريخ من قول السيوطي يذكّر بفضل هذا الباحث ، كما يذكر بفضل سابقه .

ترجيح رأي الفئة الثانية ، « في اوائل المائة الخامسة » :

ذلك أن الباحث يرى أن أقوال هذه الفئة هي المرجحة في قربها من الصواب ، من خلال ما رأينا من تهافت آراء الفئة الاولى من الداخل ، أولاً ، ومن خلال التقاء آراء الفئة الثانية ، التي هي أكثر سعيا للدقة والموضوعية ، مع ما توصلنا اليه في كشف عمر الصاحب ، تبعا

---

(١٠٢) مطبعة الترقي ، دمشق ، ١٩٤٦ ، ص ١١٢ ، ١١٣ .

(١٠٢) مطبعة عيسى البابي الحلبي ، ط ١ ، ١٩٥٧ ، ١ / ١٢٦ .

قليل ، من معاصرته للصاحب بن عباد وخليفة الصاحب الوزير ابن العباس الضبي المتوفى عام ٣٩٩ هـ .

الخطأ في تاريخ وفاة الراغب ـ قرن من الزمان !!!

ومن هذا التحقيق يتبيّن لنا حجم الخطأ الكبير الذي يقع فيه كل من قال ويقول بأن أبا القاسم الحسين بن مفضل ، المعروف بالراغب الاصفهاني قد توفي عام ٥٠٢ هجرية . فبدلا من أن يعدّ في كُتّاب القرن الخامس الهجري (١٠٤) ومفكريه فانه ينبغي أن يكون من اشهر من يحسب من أدباء القرن الرابع ومفكريه ، ذلك العصر الذي شهد الحضارة العربية الاسلامية في ازهى عصورها .

وبتحقيق هذا التاريخ نكون قد انقذنا ، بعد التحري الدقيق ، مع ما خطّه القارىء المجهول ، على احدى مخطوطات الراغب في استانبول ، من أن الراغب قد توفي عام ٤٠٦ هجرية . وقلنا عن هذه الاشارة ، لدى عرضها ، انها لا تحمل مقومات الثقة في المراجع ولكننا توصلنا ، عن طريق آخر ، انها صحيحة وان لم تأتها الصحة من نفسها .

عُمُر الراغب :

اما عن العمر الذي عاشه الراغب فاننا نقول اذا صح ما استنتجنا ، ونرجو ان يكون كذلك ، من انه قد توفي في العقد الأول من المائة الخامسة للهجرة ، وصح ما استنتجنا ايضا من ترتيب مصنفاته في حياته ومن انه قد بلغ من العمر عتيّا ، وصح ما خطّه قلم كاتب

---

(١٠٤) كما عده الدكتور عمر فروخ في كتابه تاريخ الادب العربي ـ دار العلم للملايين ، الجزء الثالث ، بيروت ، ١٩٧٢ ، ص ٢١٤ .

مجهول آخر على مخطوطة اخرى للراغب في استانبول من انه قد توفي عن ست وستين سنة ، وهذا ما لم يقم عليه دليل بعد ، اذا صح هذا كله فان الراغب لا يبعد ان يكون من مواليد العقد الخامس او الرابع من القرن الرابع الهجري . والله اعلم ، مع هذا كله ، بتاريخ ولادة الراغب وتاريخ وفاته .

اديب ومفكر ولغوي ومفسر ولكنه مظلوم :

وربّ سؤال ينهض في وجه هذا البحث الذي ملال ليحاول تحقيق تاريخ وفاة : فيمَ كل هذا العناء ؟

تتكشف الاجابة عن هذا السؤال اذا ما تذكرنا سمت كتب التراجم والطبقات ، الى حد ملموس ، عن التعرض لصاحب مصنفات روي ان حجة الاسلام ، الغزالي ، كان يعجب بها ويستحسنها لنفاستها ، واذا ما تذكرنا ان اغلب اصحاب المعاجم اللغوية وتفاسير القرآن الكريم التي عاش اصحابها بعد عصر الراغب قد افادوا منها ، تقريبا من كتابه الفذ « معجم مفردات القرآن » ، واذا ما اشفنا ، الى ذلك ، ان الراغب قد ظلم في مصنفات معاصريه وفي الابحاث الطويلة التي قامت حول رجال التراث ومصنفاتهم في العصر الحديث .

فقد ذكر الراغب ابن مسكويه ٤٢١ هـ (١٠٥) ولكن ابن مسكويه ، في اغلب الروايات لم يجره على لسانه . ولم يسرد في مصنفات ابي حيان التوحيدي ٤٠٠ هـ (١٠٦) ، في حدود ما اعلم ، وقد نقلت كتب التوحيدي بكثير مما شارك فيه الراغب من افكار دينية وشرعية

---

(١٠٥) مجمع البلاغة ، ورقة ٢٤٤ .

(١٠٦) الاعلام ٥ / ١٤٤ ، وبغية الوعاة ، ٣٤٨ .

واخلاق وسلوك . ولم يذكره معاصره ابو منصور الثعالبي وقد شغل بالتأريخ لادب القرن الرابع الهجري كله ، وقد توفي ، على الأرجح بعد الراغب ٤٢٦ او ٤٣٠ هـ (١٠٧) . كما ان الباحثين في حياة ابي الحسن البصري الماوردي وفي « احكامه السلطانية » وفي احاديثه في الاخلاق وفي « ادب الدنيا والدين » لم يذكروا ان هذا القاضي المشهور بعدله قد مرّ على خاطره اسم صاحب الذريعة او تفصيل النشأتين وهما في الاخلاق والسلوك ما هما .

كما ان ما قسام حول ادب العصر العباسي وفكره وتراثه في العصر الحديث (١٠٨) ، لم يكد يتعرض للراغب ، في قليل او كثير .

سر التجاهل :

ان هذا كله يحملنا على التساؤل عن اسباب نُدرة الترجمة ، في القديم وفي الحديث ، لفكر الراغب وادبه واثره . وهو تساؤل يبرز امام كل باحث يتعرض الراغب ويشهد المفارقة الشاسعة بين فضل الرجل وبين تجاهل الناس اياه . فقد تعرض له الباحث الوحيد ، فيما اعلم ، في العصر الحديث ، فتساءل ، في درس الراغب ، عن هذه الاسباب .

---

(١٠٧) مقدمة كتابه « الذيل والمحاضرة » تحقيق عبد الفتاح الحلو ، ١٩٦١ ، طبعة الحلبي .

(١٠٨) مثل مصنفات ظهر الاسلام للاستاذ احمد امين ، والحضارة الاسلامية في القرن الرابع ، لادم ميتز ، ولا استثني النثر الفني في القرن الرابع ، للدكتور زكي مبارك ، فالاشارة عامة للراغب لم تكن كافية على الاطلاق ، ويجري مجرى هذه المصنفات الابحاث الجامعية المقررة على طلبة الجامعات .

فقد وجد الاستاذ محمد كرد علي ان عدم اتصال الراغب بقضاء او عمل للدولة او منادمة امير او وزير هو سبب عدم ذكره ، في طول التاريخ الادبي وعرضه . ويضيف الى هذه الاسباب المحتملة سكنى الكاتب في مدينة غير مشهورة من مدن بلاد فارس ، غير اصفهان ، التي اليها ينسب ، وغير نيسابور ، التي قيل انه بها قد توفي وفيها دفن ، فقد اخرجتا رجالا لهم خطرهم في شتى الفنون .

ويحدس باحث آخر (١١٠) ان السبب هو تنقل الراغب بين بغداد واصفهان ، ولا احسب ان اديبا في عصر الازدهار الفكري والادبي الذي عاشه الراغب ، قد صفق على نفسه الباب ، ولم ينتقل في ارجاء العراقين .

وربما كان ما اصاب الراغب من اهمال سببه فقدانه لعطف الفرق الاسلامية التي كانت احزاباً تقوم على اساس سياسي كالإمامة او عقائدي كصفات الله تعالى وافعاله . وقد فقد عطف هذه الفرق لانه لم يعلن ولاءه لاحداها في مواقفه وفي مصنفاته ، بل انه قد انتقد كلا من المعتزلة والمتشيعة والمشبهة والخوارج ولم يقبل منها إلا رأي اهل السنة والجماعة (١١١) .

تشيعه :

ولا استبعد ان يكون احد اسباب تجاهله ، في القديم والحديث ، هو اتهامه بالتشيع ولعل هذا الاتهام قد نفذ اليه من احتفاله البين

---

(١١٠) هو الدكتور حسين محفوظ ، استاذ الدراسات الشرقية بكلية الاداب بجامعة بغداد ، في حديث شخصي مع الباحث اثناء زيارته لبغداد بتاريخ ١٠/١٠/١٩٧٥ .

(١١١) مخطوطة رسالة في الاعتقاد ، للراغب ، رقم ٣٨٢ ، مكتبة سليم علي باشا ، السليمانية ، استانبول ، الورقة الثانية .

بأقوال الخليفة الرابع ، كرم الله وجهه ، فهو يكثر من التمثل بأقواله وافعاله ويردّد بين الحين والحين اخبار اهل عِتْرته ، واكثر ما يكون هذا واضحا في مصنفاته الادبية كمحاضرات الأُدباء ومخطوطة « مجمع البلاغة » . ومن هنا تجد ان كتب تراجم الشيعة (١١٢) قد افردت له صفحاتها بينما لم يترجم له السبكي في طبقات الشافعية مثلا .

غير ان احد مترجمي الشيعة يفطن لما فعل من خطأ ويقرر « انه من الشافعية كما استفيد لنا من فقه محاضراته (١١٣) ، وهنا نراه يلتقي مع ما يقرره فخر الدين الرازي من « ابا القاسم الراغب من ائمة السنة » (١١٤) .

فكيف نوفق بين احتفال الرجل بأخبار علي بن ابي طالب وافعاله وبين قول بعض العلماء من انه سني ؟ انه ليبدو للباحث ان الراغب لم يتجاوز حبه لعلي ، كرم الله وجهه ، ما يرضي به نداء الوجدان الذي تربى عليه ونشأ فيه ، ذلك لانه في مواقف الفكر والعقيدة صريح صراحة لا تترك مجالاً لنقاش ، فيُخطّىء سائر الفرق الاسلامية ويعلن ولاءه الصريح لاهل السنة والجماعة ، فهو يقول : « الفِرَق المبتدعة الذين هم كالأُصول للفرق الاثنتين والسبعين (١١٥) سبعة : المشبّهة ونفاة الصفات والقدرية والمرجئة والخوارج والمخلوقية

---

(١١٢) منال الذريعة الى تصانيف الشيعة ٢٠ / ١٢٨ ، واعيان الشيعة ٢٧ / ٢٢٠ ، وسفينة البحار ، والكنى والالقاب ٢ / ٢٤٠ ، وروضات الجنات ٣ / ١٩٧ .

(١١٣) الخوانساري في روضات الجنات ، طبع ايران ٣ / ١٩٧ .

(١١٤) في ترجمة السيوطي للراغب ، بغية الوعاة ، ٣٩٦ .

(١١٥) يشير الى الحديث الشريف الذي اورده الشهرستاني دون تخريج (الملل والنحل ، ١ / ٨) « ستفترق امتي على ثلاث وسبعين فرقة ، الناجية فيها واحدة ...

والمتشيعة . فالمشبهة (١١٦) ضلّت في ذات الله ، ونفاة الصفات (١١٧) ضلّت في صفات الله والقدرية (١١٨) في افعاله والخوارج (١١٩) في الوعيد ، والمرجئة (١٢٠) في الايمان ، والمخلوقية (١٢١) في القرآن ، والمتشيعة (١٢٢) في الامامة ... والفِرَق الناجية هم اهل السنة والجماعة الذين اقتدوا بالصحابة (١٢٣) .

وليس المقام مقام توسع في موقف الراغب من الفِرَق الاسلامية وقناعته برأي السنة والجماعة ، ولكنني اكتفي بهذا القدر منبهاً الى صيغة المتشيعة وما فيها من دلالة لغوية ومن فَرْق بينها وبين الشيعة ، والى ان لقب الامام الذي يحمله لا يطلق الا على علماء السنة . والى ان الكثير من الناس في مصر وفي غيرها من البلدان العربية

---

(١١٦) هم جماعة من الشيعة الغالية قالوا ان معبودهم صورة ذات اعضاء وابعاض . (الشهرستاني ، الملل والنحل ٢ / ٦) .

(١١٧) يريد المعتزلة لانهم نفوا ان يكون لله سبحانه صفات ازلية قديمة (د . علي النشار ، التفكير الفلسفي في الاسلام ١ / ٤٢٠ .

(١١٨) يريد بهم المعتزلة الذين قالوا ان افعال العباد ليست من الله .

(١١٩) لانهم قالوا ان مرتكب الكبيرة كافر بشرك (النشار ١ / ١٨٦) .

(١٢٠) لقولهم لا تضر مع الايمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة (الشهرستاني ، ١ / ١٨٦) .

(١٢١) يريد من قال بخلق القرآن منهم — من المعتزلة .

(١٢٢) وخلاصة رأي الشيعة في الامامة « ان الله لا يخلي الارض من حجة على العباد من نبي او وصي ظاهر مشهوراوغائب مستور » و « ان النبي قد اوصى لعلي ، واوصى علي لابنه الحسن ، واوصى الحسن لاخيه الحسين ، وهكذا الى الامام الثاني عشر المنتظر » (الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء ، اصل الشيعة واصولها ، بغداد ، ط٣ ، ١٩٤٤ ، ص ٨١ .

(١٢٣) مخطوطة رسالة في الاعتقاد ، للراغب ، رقم ٣٨١ . بمكتبة سعيد علي باشا ، السليمانية ، استانبول .

والاسلامية ايضاقون بحب آل البيت دون ان يقولوا بقولهم في الامامة وفي الوصاية .

حتى اذا ما عدنا لنرى اثر هذه التهمة على ابي القاسم الراغب وجدنا انها كانت ذات اثر كبير في اغفال المترجمين لترجمته ، فقد حُسب على الشيعة وانكره مصنفو الطبقات والتراجم العامة لهذا السبب ، وتبيّن انه ليس من الشيعة ، فضاع اثره بين هؤلاء واولئك ، وانتهى الى ما نرى من نكران وخمول ذكر .

وقد يرد في الذهن ، من اسباب خمول ذكره ، ما فيه من عفة وترفع او انعزال عن دائرة الضوء ، كما نقول في هذه الايام ، وعن بلاطات الحكام . وايّاً ما كان السبب او كانت الأسباب فاننا نظل بازاء كاتب مفكر وفقيه ومفسر ولغوي قد حاق به ظلم كبير في كتب التراجم القديمة وفي ابحاث معاصريه ومعاصرينا ، ورجاؤنا ان يكون هذا البحث محاولة اولى في ازاحة ركام النسيان والتجاهل عن اثره وعن آثاره .